بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ترددت كثيراً عندما بدأت أفكر فى اختيار موضوع هذا البحث ، وكنت أظن أن اختياره هين لين ، لكن الواقع أثبت أن أصعب الأشياء لا تكون إلا أسهلها ، ورحت أطوف فى هيكل الأدب ، كما كان يطوّف فولتير فى معبد الذوق . لكنه كان يحاول من خلال ذلك نقد أدباء عصره وغيرهم ، أما أنا فكنت أفتش بين آثار القدماء التى ما زالت قابعة تنتظر البعث والإحياء كيعسوب على ومعجز أحمد ، وتطالعنى بين حين وآخر أطيافُ بعض الشعراء القدماء وأدبائهم كأسامة بن منقذ وجمال الدين بن نباتة ، وكأنى سمعت هذا الأخير ينشدنى ، وأنا أجتاز هذا الهيكل ، قوله :

أسفى لشعرٍ بارعٍ نَظَمْتُهُ تحتاجُ بهجتُه لِرِفْدٍ بارعِ
درٌّ يتيمٌ قد تضوّعَ نشرُهُ يا مَنْ يرقُّ على اليتيمِ الضائعِ

أجمع الأقدمون على أنه كان كثير المحاسن ، وكان مع ما اشتمل عليه منها قليل الحظ فى حياته ، وقد حفزنى هذا الأمر على دراسته وإعطائه حقه بعد أن استهوانى شعره .

تأثرت بهذا الشاعر ، وبقى هذا الصوت يتردد صداه فى حنايا هذا الهيكل ، يتوسل إلىّ أن أرق وأحنو على اليتيم الضائع ، ولم أكد أنتهى من تطوافى ، وكدت أخرج من هذا الهيكل حتى وجدتنى قد صممت على اختيار ابن نباتة ليكون موضوع هذا البحث .

ومادمت فى مستهل هذا الحديث ، فلا أقل من أن أزجى شكرى العميق للأستاذين الفاضلين الدكتور محمد كامل حسين والدكتور شوقى ضيف اللذين أوحيا إلىّ دخول هذا الهيكل الأدبى القدسى ، وأفسحا لى مجال التأمل والعمل ،

فرعيانى بعطفهما ، وشملانى بحبهما ، فلهما منى أفضل تحية ما سجعت حمامة ورقاء على فنها ، وهى تردد فى الوادى الظليل صدى النواعير الخالدة .

ومادمت قد اخترت هذا الموضوع ، فمن الواجب علىّ أن أبين سبب اختياره وتفضيله عما سواه من المواضيع وهى كثيرة ، ولا أعدو الحقيقة إن قلت : إن هذا الموضوع ذو شأن كبير فى هذا العصر ، ذلك لأن الشاعر يمثل الوحدة الفكرية القائمة بين البلاد العربية بعامة ومصر والشام بخاصة خير تمثيل ، وسنرى أن أهميته فى عصره أكثر من أهميته فى أى عصر من العصور ، فلم يكن شاعر مصر وحدها ، ولا الشام التى قضى فيها معظم حياته ، ولا البلاد العربية قاطبة ؛ وإنما تظهر أهميته أنه شاعر المشرق العربى كله من أقصاه إلى أدناه ، كما أجمع على ذلك القدماء . ولم نعرف بين شعرائنا وأدبائنا الأقدمين منهم والمحدثين من حمل هذا اللقب الذى نعت به فى هذه الإمبراطورية العربية الكبرى التى أنشأها سلاطين الأيوبيين ومماليكهم من بعدهم . يعنى قولى هذا أن سبب الاختيار مزدوج ، ولعلى أفى هذا القول حقه إن فصّلت هذا السبب وتحدثت عن عوامله حديثاً ضافياً .

أما الوحدة السياسية فكانت قائمة بين البلاد العربية ، وكان هذا الأديب الكبير أحد رسلها ، وما أكثر ما تحدث عنها فى شعره ، فذكر مصر والشام ، وتحدث عن النيل والأهرام ، وتشوق للسبك والمقياس ، كما تحدث عن العاصى ونواعيره وبردى وضفافه .

ولد الشاعر فى أرض الكنانة ومات فيها ، لكنه عاش جلّ حياته فى أرض الشام ، وأجمل أيامه قضاها فى رعاية الملك المؤيد أبى الفداء الذى أنساه أهله وموطنه . تلك هى قبسات من حياة هذا الأديب ، لكنها فى الواقع حياة الوحدة بين قطرين ، ومن منا لم يستمع إلى أنشودة مصرية عصرية تقول : إن هذا العربى واقف فوق ذرا الأهرام ، وقد امتدت أمامه بساتين الشام . هذه الأغنية التى نسمعها الآن على كل شفة ولسان ، إنما هى فى الحقيقة صورة من الصور التى رسمها الأديب الكبير ، وكان بحق ذلك الإنسان الذى صوّر له خياله هذه الصورة الساحرة التى نرددها الآن . ولو رجعنا معه قليلا إلى الوراء لمعرفة جده الأول ، وهو من ميّا فارقين شمالىّ بلاد الشام ، لوجدنا أنه قد أثبت

حتى عن طريق جده قيام هذه الوحدة منذ القديم ، قبل عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك .

أضيف إلى ما ذكرت من عوامل اختيار هذا الموضوع عاملا آخر قد يكون فيه بعض الأنانية ، وأعترف بذلك لأن الصدق فوق أهواء النفوس . لقد عاش هذا الأديب الكبير أمداً مديداً فى هذه المملكة الأيوبية ، وانصرف إلى مليكها المؤيد أبى الفداء فأغدق عليه وقلب حياته نعيماً وصرفه إلى التأليف بعد أن اختص به . ومثلى من حقه أن يبحث عن أديب عاش فى مدينته أجمل أيام حياته وأطولها ؛ إننى أشعر فى كل مكان أزوره فى ضفاف وادى حماة الرحب أن أقدام ابن نباتة قد وطئته ، فأنادى أن اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى .

وما جلست على ضفاف هذا الوادى ، واستمعت لصوت نواعيره النائحة الثكلى إلا ذكرت ابن نباتة ، وما أكثر ما تحدث عنها ، وما أكثر ما رق لحالها وهى تدور وتدور ، والماء من حولها يجرى والطيور تسجع وهى مطوقة كما سجع الأديب فى سجعه المطوق . لقد أعطته حماة من طبيعتها وسحرها الشىء الكثير ، فوفاها حقها ، وتحدث عنها الحديث المستفيض ، ويعلم الله أننى ما زرت قبر أبى الفداء إلا تمثلت الشاعر واقفاً ينشده مؤيدياته أو زائراً قبره يرثى عهده ، ويندب أيامه ولياليه . فعلى الشاعر العظيم ومليكه العالم الرحمة والغفران ، وندعو الله أن تنهمل على قبريهما سحائب السقيا وأن تعم وادى مصر والشام ، ففى ثرى الكنانة دفن ابن نباتة قرب النيل والأهرام وعلى ضفاف العاصى دفن مليكه الحبيب .

ذلك قولى فى فاتحة البحث الذى عملت من أجله كثيراً ، وقد اعترضتنى صعوبات جمة استطعت تذليلها ، وسأعمل ما حييت لأكون الإنسان الذى تدب نفسه وقصر جهده على خدمة أدب هذا العصر بكل ما أوتيته من قوة وصبر بعد أن توضحت أمامى المحجة وانفسح السبيل .

وبعد : فهذا كتابى بين الناس ، فإن وفقت فذلك حسبى وإلا فما قصدت إلا العمل وحده ، والله شاهد على ما أقول ، وهو ولى الأمر والتدبير .

القاهرة — الجيزة

٢١ نيسان « أبريل » سنة ١٩٦٠

عمر موسى باشا

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

عهدى بالشاعر أمير شعراء المشرق ، جمال الدين محمد بن نباتة المصرى قديم ، بعيد ، وإنى إياه يرجع إلى أكثر من عشر سنوات خلت ، يوم قدمت عنه كتاباً فى مكتبة الدراسات الأدبية ، ينشر للناس قصته ، ويعيد لهم ذكره وخبره .

إنّ ما قمت به فى الأمس البعيد لم يكن إلا باكورة أبحاثى عن أمير شعراء عصره . ولقد أرشدنى أستاذى العلامة الدكتور شوقى ضيف إلى ظهور الطابع المصرىّ المميز فى شعره ، وطلب إلىّ أن أستدرك ذلك فى المستقبل ، ولكن كثرة أعمالى فى التدريس الجامعى حالت دون القيام بذلك ، ومضى وقت طويل ، وهذه الفكرة تراودنى حيناً بعد حين ، ويتعذر علىّ إنجازها ، حتى كان صيف هذا العام ، فإذا بى أعود إلى الشاعر عودة جديدة ، وإذا بديوانه يدعونى إلى مطالعته من جديد ؛ وعجيب أمر الإنسان فى مثل هذه الحال ، فلقد ساورتنى الحيرة الشديدة ! إذ وجدت فى هذه القراءة الجديدة مالم أجده من قبل ، وألفيت نفسى مرتبطاً برباط أوثق مما كان بيننا ، فأقبلت عليه إقبال الصديق القديم ، وعكفت على شعره ، فوجدتنى أطرب من جديد ، ولكن طربى لشعره غير ما كنت أعهده فيه .

أما الذى استرعى انتباهى حقّاً ، فهو هذا الطابع المصرى فى شعره ، وكنت أتوقع حين شرعت فى العمل والبحث ألا يتجاوز الفصل الواحد ، وإذا بهذا الفصل يتجاوز حدوده .

وقفت متعجباً أمام هذا الإيمان العميق بحبّ البلدان والأوطان ، وقدّست هذه العبقرية النباتية التى قدّمت لمصر أجمل شعر فى التشوّق والحنين إليها ، ولم يكن الشاعر ليقتصر كسائر الشعراء على مقطعات وقصائد محدودة ، وإنما نجد شعره كله فى مختلف المعانى والأغراض يتميز بهذا الطابع الخاص

الذى يرفعه إلى قمة المجد من جديد كما كان فى الماضى البعيد .

ولو أجرينا مقارنة بينه وبين الشعراء المصريين القدماء والمحدثين ، وقوّمنا كل شاعر بمقدار ما تحدّث فيه عن وطنه مصر ، لرأينا أن كفّته ترجح عليهم جميعاً ، إذ إنه كان مطبوعاً بطابع مصرى محض على الرغم من أنه قضى قريباً من نصف القرن من الزمن بعيداً عن أرض الوطن .

لم أتطرّف فى هذا الحكم ، ولم أقرّره مسبقاً ، ولم أقله اعتباطاً ، وإنما هدتنى إليه الدراسة الموضوعية القائمة على بحث دقيق ، استقصيت معظم ما يتعلق بهذا الطابع ، وقدّمت خلال ذلك من الشواهد والبينات ما يجعل رأيى صحيحاً بعيداً عن الغلو والمبالغة فى تقرير الأحكام النقدية .

إننى أضع هذا الكتاب فى طبعته الثانية بين أيدى العاكفين على الدراسات الأدبية ، ليطلعوا على هذا الطابع المصرىّ الذى يميز أدب أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصرى .

ولعلنى أكون قد أحسنت صنعاً فى المناسبة التى قدّمت خلالها هذا الكتاب ، وهى مهرجان القاهرة الألفى فى هذا العام ، وهكذا أكون قد أشركت الشاعر نفسه فى الاحتفال الكبير ، وهو فى الواقع أحقّ من يسهم فيه بشعره ، ولقد أسهم فعلا قبل مئات السنين بالتحدث عن مصر والقاهرة ، ولم يتحدث أحد قبله عنهما مثله ، وشعره خير دليل على ما نقول .

تحدث عن أرض الكنانة ، فوصف لنا معالمها ومشاهدها وأوابدها ، وهو متغرّب بعيد عنها ، فلم يترك منها شيئاً مشهوراً دون وصف أو إشارة أو رمز إليه .

لن نستبق القول والحكم فى هذا التقديم التقليدىّ ، وإنما أترك الحكم الذاتىّ بعد الاطلاع على هذا الكتاب ، فسوف نجد أن الشاعر كان أميناً كل الأمانة على حب الوطن وتقديسه والتضحية فى سبيله .

وبعد ، فليكن الشاعر المصرىّ المولود فى زقاق القناديل بالقاهرة ، والمقبور فى خانقاه سعيد السعداء فيها ، أول من يحتفل بذكرى القاهرة

الألفيّ ، وهو أحق من يحتفل بها ، فله منة فى عنقها أبداً ، لأنه خلدها قبل مئات السنين ، وحرى بها أن تحتفى به فى عيدها الألفى .

ومن حق الشاعر على دار المعارف أن يكون هذا الكتاب عن الشاعر المصرىّ رمز احتفالها المنتظر فى عيد القاهرة الجبارة التى قهرت له الأعداء فى الماضى ، وستقهرهم بإذن الله فى المستقبل ، والله وحده من وراء القصد .

دمشق – المهاجرين .

١ كانون الأول « يناير » سنة ١٩٦٩ .

عمر موسى باشا

obeikandl.com